



علي بهلول

في اللحظة التي سمعت فيها صوت الانفجار وعمّ الظلام غرفتي، كنت متأكداً أن المولدة الكهربائية قد احترقت، وأن هذا الصيف قد استفرد بي أخيراً.

نهضت من فراشي متثاقلاً، بحثت عن القداحة، تأففت، الأمر أشبه بالـ "15 رجلاً ماتوا من أجل صندوق"، تستطيع أن تثق بالسوري بأي شيء، إلا فيما يتعلّق بالقداحات، اشتري يوماً باكيت سجائر وخمس قداحات على التواتر، ما من سوري إلا ويحوي داخله مجرم قداحات صغير، حتى أبي الذي يتظاهر بعدم معرفته بأمر تدخيني يسرق مني القداحات، يعلم أنني لن أجرؤ على مطالبته بها، بكل الأحوال سبق وأن دفع ثمنها، أنا اشتري من مصروفي الذي هو ماله في النهاية.

أزحت ستائر النافذة الكثيفة التي كانت تحجب النور تماماً، وتركت أشعة الشمس تدخل، أشعر وكأنها كانت تحتشد أمواجاً على ستائري بعد نزوح ضوئي طويل نحوي، وأنا الحاجز "ابن الحرام" الذي يذلها بالوقوف، لذلك تدخل كحديد منصهر، ضوء هادر، صاحب. بكل الأحوال يتوجب علي التوقف عن متابعة الأخبار حتى لا يستمر عقلي بخلق هذه الارتباطات، عملياتي الفكرية أصبحت أشبه بمصنع "الشعلة" السورية، ينتجون في هذا المصنع مواد عجيبة مهمتها إلصاق ما لا يلتصق ببعضه، الشعلة صناعة وطنية بحتة، تعمل على المبدأ المخبراتي العام في البلاد، إلصاق التهمة بمن لا تطابقه الجريمة، تياً تياً، علي التوقف عن متابعة الأخبار فقط.

الأصوات صاحبة في الخارج، والزحام أشبه بمتعاطين الهرمون، ينتفخ حتى تخاله سينفجر، كمنانة حافظ الأسد التي وصفها... حسناً، سأصمت.

الموالون يقولون أن الله يحارب معهم لذلك أرسل لنا صيفاً قاسياً، هكذا تقول "منتهى"، لافظة أنفاسها الأخيرة الأشبه بعلبة سردين منتهية الصلاحية. المعارضون يقولون بل إن الله يحارب معهم ولذلك أرسل لنا صيفاً قاسياً، هكذا يقول "أبو العز"، ولا يلحق أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. أنا أقول أن الله يكره السوريين، لذلك أفضل الاعتقاد بعدم وجوده، لا أريد أن يكون هناك مشاكل شخصية بيننا، لأجل خاطر والداي أيضاً اللذان يحبانه، أكثر مني.



في الطريق باتجاه منزل "أبو تيمور" في حي القريبات. صوت انفجار. قلبي ينبض بين صدغي.

مجموعة من الناس تركض، أركض معهم. "يقولون اسمه عيسى" يصرخ عجوز بجاني، "عيسى؟!!!" أصرخ متفاجئاً.

من عيسى؟!، ماذا لو كان أحمد مثلاً؟!، لماذا تفاجأت أنا أصلاً!

أمسك العجوز من كنفه، فيصرخ بي "من تظن نفسك، أمي، أبي، أبنني، زوجتي، من؟!!"

"أوووه!" قلتها وأنا أنثني، وأمط شفاهي كزرافة أصابها ضيق في التنفس، حدث ذلك بعد أن ركلني رجل مخبرات على خصيتي!

"لم أفهم!" تمتمت وأنا أكتشف لأول مرة وجود مخارج للحروف من الكلى.

صرخ "إنه يوم يفر المرء من أبيه.." صفعني، "وصاحبته وبنيه" ركل مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت يداي تحيطان كيس الصفن تماماً، أقل حقوق اللاجئ أن يحمل معه هذا الكيس أينما ذهب، تياً!

أهرول بركبتين مرتجفتين، وجسد منحنى، من هو عيسى؟!

متجاوزاً مدينة جرمانا في ريف دمشق مع الهاربين، وبالقرب من جسر الكبّاس، تمتد يد لتسحبني من ياقتي من بين كل الجموع، وما إن تقع عيني على الوجه أمامي حتى أصرخ، ولأول مرة أستخدم لساني بهذه الطريقة، أقصد هذه الرفرفة السريعة بين سقف حلقي وفكي السفلي كما كان يفعل لسان جارتنا أم صالح حين تزغرد، ولأول مرة أشاهد أبجديتي وكأنها كنزة مقلوبة، قبل أن أنطق بأسماء الآلهة أجمعهم، بدءاً من أسطورة الخلق اليونانية، وانتهاء بالله الواحد الأحد، الذي وُجد شتات شملهم.

"اعتقدت أنك قتلت!!" صرخت أنا.

"أنا لم أقتل يا جوررة الخراء!" صرخ خالد مبهوتاً.



"جميعنا اعتقد أنك قتلت، حتى والدتك، يمكنك أن تحذف جورة الخراء هذه. أنا أيضاً بكيت عليك أيها السافل، يمكنك أن تعتذر الآن" قلت أنا منفعلاً.

"أقف هنا منذ ستة أشهر بانتظار وسيلة نقل، سيارة، دراجة، أي شيء، لا أحد يوصلني يا رجل" يشرح لي خالد.

"لقد طبعنا لك بوستراً كبيراً، ولقبناك بطلاً أيها السافل، لم نستلم جثتك، لا أحد يعرفك، والدك مرق فروة رأسه" صرخت أنا مجدداً.

سحب خالد، ازرققت شفثاه، تعرق سريعاً، وبدى أنه يخسر كيلوغراماً من وزنه مع كل خفقة قلب.

مذعوراً أسأله "ما الذي يحصل؟!"

استند إلى بلوكات كانت على الرصيف "لا أدري، كنت في باص نقل داخلي، حين سقطت قذيفة قريبة، انقلب الباص عدّة مرات، لا أدري كم رأساً هرسست بركيتي أثناءها، لا أدري كم شخصاً قتلت، كنت متعباً جداً حين خرجت من بين صفائح الباص المتكورة على بعضها كمسودة مرقّت على عجل، لم أستطع أن أكمل الطريق مشياً، وأنا لا أدري كم شخصاً قتلت، وكم شخص قتلني".

"قتلك؟!" كل حرف من هذه الكلمة مرق جزء من رئتي حتى اكتمل.

نحف خالد بسرعة، وجهه مال إلى لون الفحم، وبينما كان يقسم لي بصوت باكي أنه لم يمت، سقطت شفثته السفلى، بدى أشبه بهيكل عظمي، فجوات في رأسه أصبحت أكثر وضوحاً، واضحة جداً حتى وأنا أبتعد عنه مغشياً على بصري، كنت أستطيع رؤيتها بوضوح مزعج، فجوات على شكل الاهتراء في فروة رأس والده.

خالد يجهش "أرجوك لا تبتعد، يقولون أن مهرباً هنا اسمه عيسى، سينقلنا إلى مكان آمن"

يرعد صوت لرجل على الضفة الأخرى "أيها المسيح!.. ردّ لي بلائي والخطايا، لم يكن هذا الخلاص الذي اشتبهه" ومن بعيد بدى لي وكأن صاحب الصوت كان أبو العز.



أعود.. بخطئٍ تتهجى طريقها بثقلِ كنبوءة..

أخلع أبواب منزلي بعد أن تنكرت جميع أفعاله لمفاتيحي..

أفتش ملابسي، دروجي، مخابئي السرية، أنخر بضيق، أفسر طلاء الجدران بأظفري، الكثير من رسومات الطفولة خلفها، لا بد أن أجده، شيء ما هنا، شيء شيء، شيء لا أذكره، يا الله!

في اللحظة التي سمعت فيها صوت الانفجار وعمّ الظلام غرفتي، اعتقدت أن المولدة الكهربائية قد احترقت، لم يخطر ببالي أبداً، أن صاروخاً عشوائياً غيباً، قد قتلني.

الكاتب: [رمان الثقافية](#)